فَصْلٌ

فيما ينبغي للوزيرِ أن يأتيَه ويذرَه

اعلـمْ أن الملوكَ لا يشبهون الآدميين إلا بالصورِ، فأما الطباعُ والأخلاقُ والهِمَمُ فإنهـم لا يُشاكِلُونهم، ولا يشابهونهم، والملِكُ وإن كانَ كريماً سخياً بعيـد الهمَّةِ كثـيرَ المحاسنِ، فإنه لا يخلـو قطُّ من أربعِ خصـالٍ: الحسدِ، والحقـدِ، والمـلالِ، والحرصِ على المـال، فينبغـي أن يكونَ الوزيـرُ أعقلَ الناسِ، وأحزمَهم وأهداهم، وأبعدَهم غوراً، فيجب عليه أن يُداريَ أخلاقَ الملكِ كما يُداري السابحُ الماءَ المُغْرِقَ، والوالدان أولادَهم الصغّارَ، والحاوي الحيةَ، ويتحفظُ عن غائلته، كما يتحفظُ من السَّبُعِ والنارِ القويةِ، والمجنونِ الـذي بيـده السيفُ المسلولُ، ويجـبُ ألّا يملك ما يَصْلُـحُ للملكِ من نفائسِ الأعـلاقِ، إلا ما في نفسـه أن يبدّيه إليه، ويخدمَه بـه، وينبغي له أن يُظهر ويُشِيعَ أنَّ جميعَ ما يملِكه وتحويه يَدُه للمَلِكِ، وأنه إنما يُمسكُه ويحفظُه من أجلـه، ويجبُ عليـه ألّا يسرفَ في الإهداءِ، ولا ينحـرفَ في بذلِ ما في يدِهِ، وكمـا لا تشبـع النارُ من الحطـبِ لا يشبعُ الملكُ من الأمـوالِ، ولا بدَّ للوزيرِ من الاستظهـارِ بالذخائرِ الخفية، وقد قالَ الحكيمُ لوزيرٍ كان يستكثرُ من اعتقالِ الضيّـاعِ، ويغالي به: عليك بحفظ الدنانير التي تشتري بها روحَك مـن الملـكِ، فربما فعل ألفُ دينـارٍ ما لا تفعله ضياع، ويشتغـلُ بمئتي ألفٍ، ومـن نُكَتِ هذا البابِ: أنَّ الملكَ يريدُ كلَّ حسنٍ وطيّبٍ لنفسهِ، ويستأثرُ على والده وولده، وكذلك يقول: من ملك استأثر.

ودعا الفضلُ بنُ مروانَ المعتصمَ مرةً إلى دارِهِ واحتفلَ واحتشدَ في إحسانِ الدعوةِ، فلما حضرَ المعتصمُ ورأى مروءَته وتَجَمُّلَه، عَمِل فيه الحسُد عَمَلَه، فانقبض وزوى ما بين عينيه ولم يَنْشَطْ لطعامٍ ولا شرابٍ، وزعمَ أنه يشتكي بَطْنَه، وفَطِن الفضلُ لما دَهاهُ وأراد أن يُوهِم أن تلك الآلاتِ مستعارةٌ من دارِ أمير المؤمنين، ليطفىءَ بها نارَ الحسدِ وغضبِهِ، فتقدم إليه، وقال: يا أميرَ المؤمنين؛ أنا إنما استعرتُ أكثرَ هذه الأشياءِ من دارِ أميرِ المؤمنين، وقد أرهقني الحُزَّانُ والفرّاشُ باسترجاعها فإنْ رأى أميرُ المؤمنينَ أن يأمر لي في ردِّها فَعَلَ، فضحكَ المعتصمُ وقال: لا يتأخر قل لهم: لا يسترجعونها اليومَ، ثم نَشَطَ للطعامِ والشرابِ، وطابتْ نفسُه.

وقد قيل: لا ينبغي للوزيرِ أن يدعوَ الملكَ إلى ضيافتِه، فإنه يعتقدُ أنه يلاطفُه من ماله، وينفق على موائدِه من فوائده.